الدرس الخامس: النظرية السلوكية

تركِّز النظرية السلوكية على الجانب العملي للغة، وتهتم بما يمكن ملاحظته وقياسه، وتهمل كل ما تعلَّق بالذهن والعقل والاستبطان والفكرة والتصور. وقد انطلقت في دراستها من نقدها اللاذع للنظرية التصـــورية العقلية وبالموازاة مع هيمنة النزعة التجريبية على البحوث والدراسات مقابل النزعة التجريدية.

1-أصولـهـا:

لقد سـيطرت السـلوكيون على الدراسـات النفسـية في الولايات المتحدة الأمريكية لفترة زمنية طويلة، وتركت أثرها في مختلف العلوم ومنها اللسـانيات من خلال المدرسـة التوزيعية وعلم الدلالة من خلال النظرية السـلوكية لصـاحبها بلومفيلد. يرى المنتمون إليها أنَّ السـلوك البشري يمكن وصـفه بطريقة دقيقة وتامة اعتمادا على الظواهر الفسيولوجية وكل شـيء قابل للملاحظة. ويرفضـون أي دراسـة لا تتبع هذا الطريق ولا تنتهج هذا المنهج. وانسـحب هذا على اللغة باعتبارها ظاهرة بشرية فيصدق عليها ما يصدق على " الظواهر البشرية الأخرى ".

2-أسـسـهـا:

تقوم السلوكية بوجه عام على جملة أسس منها[1]:

- لا تقبل السـلوكية اسـتعمال مصـطلحات تشـير إلى الذهن، العقل، التصـوّر، الفكرة، وغيرها وترفض الاسـتبطان باعتباره وسـيلة للحصـول على مادة ذات قيمة في علم النَّـــفـــس. لذا ينغي على الدارس أن يهتم بالملاحظات المباشرة والسلوكات الظاهرة وليس بما يحدث في الذهن.

---

[1] أحمد مختار عمر.

- تهتم الســـلوكية بالتعلم انطلاقا من البيئة الخارجية فهي المؤثر الوحيد في ســـلوكات الأفراد، واستعباد الجانب الوراثي أو التقليل من دوره.
- نظرية آلية ميكانيكية ترى أنّ كلّ شيء في العالم محكوم بقوانين الطبيعة.
- تعتمد على ثنائية المثير والاســـتجابة، فكل ما يقوم به الأفراد من ســـلوكات هي استجابات لمثيرات خارجية من البيئة.

ك ⟵ س

وبناء، فإن فهمنا لسلسلة الحدث الكلامي يتمثَّل في التصور البياني التالي:

١ ٢ ٣

(م ⟵ س) (م ⟵ س) (م ⟵ س).....الخ

وهنا كلّ ســـلوك يحتوي على مثير، واســـتجابة، يقود إلى التالي، وهكذا في عملية دائرية.

وسبب اشتهار بلومفيلد، على الرغم من أسبقية علماء آخرين مثل واطسن ثم وايس، لكن بلوفيلد كان الأكثر تأثيرا في تطوّر الدراســـة العلمية للغة في النصـــف الأول من هذا القرن. وهو أكثر من غيره – المسئول عن تقديم النظرية السلوكية إلى الدرسين اللساني والدلالي.

3-وصفـهـا:

وُجِدَ عِنْد بلومفيد، في بحوثه الأولى، ميولات إلى الدراسات العقلية، ولكن ابتداء من 1926 هَـــجـــر بلومفيلد فجأة هـــذا الاتجاه، ومال نحو أفكار وايس السلوكية. ونتيجة لهذا الوعي الجديد أكَّد أنَّ **الدلالة** هي مثيرات وردود عليها أو اســـتجابات قابلة للملاحظة والموجودة في المنطوقات وعرّف دلالة العبارة اللغوية بأنها: الموقف الذي ينطقها المتكلم

فيه، والاســتجابة التي تســتدعيها من المســتمع. فعن طريق نطق عبارة لغوية يثير المتكلم مســتمعه من أجل الاســتجابة المباشــرة. هذا الموقف، وتلك الاســتجابة هما الدلالة اللغوية للعبارة.

إنَّ البحث عن ماهية الدلالة وآلية حصـــولها أدّى بالعالم اللغوي الأمريكي (بلومفيلد) إلى **هجر الاتجاه العقلي** والبحث عن الدلالة في **السلوك اللغوي الظاهر**، وبعد تحقّق الأفكار التي مال إليها (بلومفيلد) تجلّى الاتجاه الســـلوكي لدى هذا العالم وقد عرّف دلالة العبارة اللغوية بأنَّــه عبارة عن موقـف يقوم فيه المتكلِّم باختيار هذه العبارة من أجل أن يثير مستمعا معيَّنا، فيستجيب له بعبارة أخرى مناسبة للعبارة الأولى. وباجتماع المثير والاستجابة تتحقَّق دلالة هذه العبارة اللغوية. وإن تطبيق هذه الثنائية يستدعي النظر في المقامات التي تصاحب العبارة اللغوية، ومعرفة كلية لعالم المتكلم[2].

وقد قبل بلومفيلد اتجاهين عامين في مذهبه السلوكي:

- رفض المصطلحات العقلية.
- الإيمان بالحتمية المرتبطة بالوضعية والفيزيقية.

والمثال الذي ضربه بلومفيلد للحدث الكلامي كان كما يأتي:

قصة جاك وجيل:

يسير جاك مع جيل بجانب حديقة فيها أشجار التفاح، تشعر جيل بالجوع عندما ترى التفاح، فتطلب من جاك أن يحضـرها لها، يستجيب لها بأن يتسوَّر السور ويتسلَّق الشجرة ويناولها التفاحة، فتأكلها جيل فورا.

---

[2] ينظر منقور عبد الجليل. مرجع سابق.

يحلِّل بلومفيلد القصـــة تحليلا ســـلوكيا، فيتحدَّث عن المثيرات والاســـتجابات التي صاحبتها

- رؤية جيل للتفاحة وهي جائعة يحدث لها إثارة بصرية (م).
- يقوم جاك بالاستجابة لها استجابة بديلة عن استجابتها هي بعبارة لغوية (س).
- عبارة جاك هي استجابة ثانية بديلة لمثير هو عبارة جيل (م)
- عبارة جاك سأحضر التفاحة هي مثير لاستجابة جيل بتناولها[3].

4-نـــقـدهـا:

هناك جملة مآخذ على النظرية السلوكية، نذكر منها:

1-لا يمكن تعميم قصـــة جاك وجيل على جميع الحوارات التي يمكن أن ترد في لغة من اللغات وتحليلها وفق التحليل الســـلوكي الذي قام به بلومفيلد. فالمشـــاعر مثلا لا يمكن ملاحظتها وتحليلها تحليلا فيزيقيا بخلاف الجوع.

2-كذلك، لا يمكن توقُّع الاستجابات، على خلاف ما ذكره بلومفيلد في مثاله السابق، فهي مجرّد افتراضات قد تحدث وقد لا تحدث، وقد تحدث استجابات أخرى مخالفة تماما وغير متوقَّعة، لذلك تعتبر النظرية السلوكية الإنسان عبارة عن حيوان أو آلة تتلقى الاستثارات فتحدث الاستجابات المطلوبة.

---

[3] ينظر أحمد مختار عمر. مرجع سابق.